محاضرة في الأدب الأندلسي / الدراسة الأولية / أعدها الدكتور علي مطشر نعيمة

عنوان المحاضرة : البدعة الفنية في شعر الزهد في عهدي الخلافة والطوائف في الأندلس :

ظهر شعر الزهد في الأندلس لأسباب مشابهة لظهروه في المشرق , وفي مقدمة تلك الأسباب انتشار المجون في الأندلس ولا سيما في عهد الطوائف , كذلك عهد الخلافة السابق لعهد الطوائف لم يخلُ من المجون لكنه لم يكن بالمستوى الذي شهده عهد الطوائف . وظهر في هذين العهدين مجموعة من الزهاد طرحوا في شعرهم الزهدي خلاصة تفكرهم وتأملهم وتجاربهم في الحياة . وسنقف عند أهم ظاهرتين فنيتين عرفهما الشعر الأندلسي في هذين العهدين :

أولا : ظاهرة الممحصات في عهد الخلافة :

الممحصات في اللغة : يقال : محّص الذهب بالنار , خلّصه مما يشوبه . وفي الاصطلاح , أُطلِقت تسمية الممحصات على قصائد في الزهد نظمها الشاعر ابن عبد ربه في شيخوخته يكفر بها قصائد له في الغزل كان قد نظمها في مرحلة الشباب .

والممحصات بهذا الشكل تحول كبير ومهم في شعر الزهد يعكس حقيقة الزهد عند الشاعر ابن عبد ربه فضلا عن تأكيد نزعة التجديد الملازمة للشاعر طول حياته .

ومن شواهد الممحصات قول ابن عبد ربه :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدرُ ولا يقضّى له من عيشه وطرُ

عاين بقلبك إنّ العينَ غافلةٌ عن الحقيقة واعلم أنّها سقرُ

أنت المقول له ما قلتُ مبتدئا ((هلّا ابتكرتَ لبينٍ أنتَ مبتكرُ))

جاءت هذه القصيدة تمحيصا لقصيده له في الغزل بغلام كان يهواه عزم على السفر فمنعه المطر من الرحيل , جاء فيها :

هلّا ابتكرتَ لبين أنت مبتكرُ هيهات يأبى عليك الله والقدرُ

ما زلت أبكي حذار البين ملتهفا حتى رثى ليَ فيك الله والمطرُ

آليتُ ألّا أرى شمساً ولا قمراً حتى أراك فأنت الشمس والقمرُ

ممّا يؤكد تأصيل نزعة الزهد عند الشاعر أنّ معاني الغزل الواردة في النص في أعلاه لا تشكل خطرا على الأخلاق , ومع ذلك نجد الشاعر حريصا على أن يكفر تلك المعاني ويحولها إلى زهد توبةً واستغفاراً من هذه المعاني .

ونرى في ممحصات ابن عبد ربه قيما متنوعة منها :

1 – تعد الممحصات اتجاها تجديديا في شعر الزهد في عهد الخلافة , فهي بدعة فنية في الزهد لم يسبق إليها شاعر قبل ابن عبد ربه .

2 – تعد الممحصات شكلاً من أشكال (التناص الداخلي) بين الشاعر ابن عبد ربه ومعجمه الشعري .

3 – كانت الممحصات سببا لظهور نوع جديد من الموشح هو الموشح المكفر .ويربط صفي الدين الحلي بين الممحصات والموشح المكفر قائلا عن قصائد الزهد عند ابن عبد ربه : ((سمّى قصائده الممحصات أي التي تغسل القصائد الماجنة وتمحو أثارها وتكون كالتوبة والاستغفار منها , ثم سار على إثره الوشاحون وعدلوا إلى تسمية هذا النوع من موشحاتهم المكفرات وتوسعا فيها حتى كفر بعضهم عن بعض مع اشتراط أن يذكر المكفر مطلع الموشحة اللاهية في خرجته الأخيرة))

ثانيا : التجديد في الزهد على مستوى القافية في عهد الطوائف :

شهد عهد الطوائف تجديدا في شعر الزهد على يد الشاعر الزاهد أبي إسحاق الإلبيري , وقد جاء هذا التجديد على مستوى القافية , فقد التزم الشاعر الزاهد بتكرار لفظة معينة في نهاية قصيدته , كما في قوله :

يا أيها المغتر بالله فرَّ من الله إلى اللهِ

ولذ به واسأله من فضله فقد نجا من لاذ باللهِ

وقم له والليل في جنحه فحبذا من قام للهِ

واتلُ من الوحي ولو آيةً تكسَ بها نورا من اللهِ

وعفّر الوجه له ساجدا فعزَّ وجهٌ ذلَّ للهِ

وله من قصيدة أخرى في الزهد :

ويل لأهل النار في النارِ ماذا يقاسون من النارِ

تنقدُّ من غيضٍ فتغلي بهم كمرجلٍ يغلي من النارِ

فيستغيثون لكي يُعتبوا ألا لعاً من عثرة النارِ

وكلهم معترفٌ نادمٌ لو تُقبل التوبة في النارِ

ويبدو لنا أنّ التزام تكرار لفظة معينة في قصيدة بوصفها قافيةً لا يمكن أن ينجح ألا في غرض الزهد وإلا عُدَّ تكلفاً وصنعةً , أما في غرض الزهد فهناك خصوصية لمعاني هذا الغرض وكأنّما تكرار مثل هذه الألفاظ في الزهد يمثل تنبيهات متوالية لتوقظ في نفس كل إنسان غافل رغبة التوبة إلى الله والنجاة من النار مما أحدث توافقا إيقاعياً ودلالياً بين القوافي بحلتها الجديدة والمعاني في تلك النصوص وهو أمر يصعب تحقيقه في غرض آخر غير غرض الزهد .

المصادر :

1 – الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة , د. منجد مصطفى بهجت

2 – ديوان ابن عبد ربه , جمعه وصحح نصوصه د. محمد رضوان الداية

3 – ديوان أبي إسحاق الالبيري , تحقيق د. محمد رضوان الداية

4 – العاطل الحالي والمرخص الغالي , صفي البدين الحلي , تح د. حسين نصار